الميثاق أو العقد

يشكل الميثاق السيري حداً فاصلاً بين الأجناس الأدبيّة؛ إذ يحدّد هويّة النص إذا ما كان سيرة ذاتيّة، من خلال ما ورد في النص ذاته، دون الاستعانة بعوامل خارجيّة لإثبات ذلك فوجوده يحقق التطابق بين المؤلف، والسارد، والشخصيّة الرئيسيّة، مما يضع النص ضمن جنس السيرة الذاتيّة، وتتمثل أهميته في كونه اتفاقاً يعقده المؤلف مع القارئ، وبموجب هذا الاتفاق يُوَجَّه القارئ، وتُحَدَّد طبيعة قراءته.

فالميثاق يقود القارئ للوصول إلى حقائق، تتعلق بتاريخ شخصيّة واقعيّة، يُسرَد لها، أما غياب هذا الاتفاق فيجعل القارئ يعيش مع تجربة خياليّة يصنعها الكاتب، ويوقع القارئ في مأزق التجنيس، وضبط هُويّة النص، ويجعله يبحث عن مدى واقعيّة النص، و ارتباطه بحياة كاتبه، أو ارتباطه بالخيال. وقد يكون هذا الغياب أمراً قصده الكاتب، ليوحي بالانفصال بينه وبين نصّه. لما للسيرة الذاتيّة من دور في كشف أسرار حياة صاحبها، وتعريته، مما يعرّضه لمواجهة مجتمع يرفض الانفلات من عقد العرف الاجتماعي، وتجاوز التابوهات التي تربّى عليها. ومثل هذه المحاولات، محاولات التخفّي وراء عقد غائب، تسهم في انفراط عقد ميثاق السيرة الذاتيّة وتحقق عدم التطابق بين المؤلّف، والسارد، والشخصيّة.

وقد تناول (فيليب لوجون) قضيّة الميثاق، وجعله واحداً من العناصر القادرة على الفصل بين السيرة الذاتيّة، وغيرها من الأجناس الأدبية المتعالقة معها، فالحدّ الذي وضعه للسيرة الذاتيّة تضمّن أربعة عناصر، وهي:

1- شكل اللغة:

أ- حكي.

ب- نثري.

2- الموضوع المطروق:حياة فرديّة، وتاريخ شخصيّة معيّنة.

3- وضعيّة المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصيّة واقعيّة) والسارد.

4- وضعيّة السارد:

أ- تطابق السارد والشخصيّة الرئيسيّة. ب- منظور استعاديّ للحكي. ([1])

وميّز (لوجون) بين مصطلحي الميثاق، والعقد، فقال:" لقد استهواني مصطلح ميثاق السيرة الذاتيّة، لأن الميثاق يثير صوراً خرافيّة، مثل المواثيق مع الشيطان (2)، التي نغمس فيها ريشتنا في دمنا من أجل بيع الروح، في حين يحيل العقد على دلالة أكثر نثريّة إننا عند كاتب شـــرعيّ. إنّ مصطلح عقد يستتبع ويفترض وجود قواعد صريحة، وثابتة ومعترف بها لاتفاق مشترك بين المؤلفين والقراء، بحضور الكاتب الشرعي الذي يتم التوقيع عنده على نفس العقد وفـــي نفـــس الوقت"([3]).

ورأى جابر عصفور أنّ السيرة الذاتية الأدبيّة فنٌّ يتطلب ميثاقاً مرجعيّاً "طراز الإحالة فيه يحدّد الإشارة بحضور داخليّ غالباً"([4])، وذهب إلى أنّ ما أطلق عليه (فيليب لوجون) "الميثـــاق المرجعي" إنما هو "التشابه مع الحقيقي والاقتراب منه إلى الدرجة التي تدني بالأطراف إلى حالة من الاتحاد"([5])، فهذا النوع من الميثاق "يحدد، ضمناً أو صراحة، العلاقة بين كتابة السيرة الذّاتيّة والواقع الذي تشير إليه من منظور التطابق الذي تنبني عليه بين المؤلف، والسارد، والشخصـــيّة في الدلالة على ما وقع في الخارج"([6]).

وقد بيّنا في تمهيد هذه الدراسة أنّ الحدود الفاصلة بين الأجناس الأدبيّة باهتة، مما يجعل قضيّة التجنيس الأدبيّ شائكة، وتتطلب كثيراً من البحث، والتنقيب، خاصة في باب السيرة الذاتيّة، والأجناس المتشابكة معها، فالسيرة الذاتيّة نصّ يسرد فيه صاحبه تاريخ حياته، ويذكر حقائق، وحوادث واقعيّة، لكنّ السؤال الذي يُثار هنا: هل كل نصّ تحدّث عن حياة صاحبه يعدّ سيرة ذاتيّة؟ وهنا أذهب إلى ما ذهب إليه يحيى عبد الدايم الذي لم ير في القصص التي صورت حياة صاحبها ترجمة ذاتيّة له؛ "لأنّ كاتب الترجمة الذاتيّة في صورة روائيّة لا بدّ له لكي ينأى بها عن مجال القصة من أن يفصح عن اسمه وعن غايته على نحو لا موارية فيه، فلا ينكر مثلاً أنّه بطل روايته، ويلجأ في هذه الحالة إلى اسم مستعار يختفي وراءه، ويستعير أسماء وأماكن غير تلك التي كانت في الحقيقة، ولا يستعين بعناصر الفن الروائيّ في تغيير الحقيقة المتعلقة بحياته"([1]).

لكنّ ذلك أيضاً لا يبعدها عن أجناس ترتبط بالسيرة الذاتيّة، وهذا يُظهر أهميّة الميثاق في قضيّة التجنيس، والفصل بين السيرة الذاتيّة وغيرها من الأجناس الأدبيّة المتماهية معها. ومن هنا كان الاهتمام بقضيّة الميثاق، ومحاولة التفريق بين أنواعه المحدّدة لطبيعة النص، فطبيعة الميثاق هي البوصلة التي تسهم في التجنيس الذي نسعى إليه، وكذلك الكشف عن الطرق التي يُقدّم بها الميثاق، وأماكن تواجده، فالميثاق السير ذاتي، وهو "الحالة الأكثر تواتراً" ([2])، يعدّ حدّاً يضع النص في جنس السيرة الذاتيّة، ويبعد الشكوك حول انتمائها لأجناس أدبيّة أخرى، فبه يتحقق التطابق بين المؤلف، والسارد، والشخصيّة.

وقد لجأ كتّاب السيرة الذاتيّة، غالباً، إلى تدوين مصطلح سيرة ذاتيّة على الغلاف، كما فعلت فدوى طوقان على غلاف سيرتها (رحلة جبليّة رحلة صعبة)، وكذلك علي الخليلي على غلاف سيرته (بيت النار، المكان الأول، القصيدة الأولى)، وبذلك يكون الكاتب قد عقد ميثاقاً مع القارئ، وجعل النص وثيقة تاريخيّة لشخص يسرد تاريخ حياته، ويدوّن الحقائق، رغم علمنا ما يشوب السيرة الذاتيّة من نقص، ونسيان، وإخفاء لبعض الحقائق المتعلّقة بالكاتب.

ويمكن للمواثيق أن تتنوع، وتتعدد أشكالها، وتختلف أماكن تواجدها من كاتب إلى آخر، ومن نص إلى آخر، فالميثاق "ميثاق العنوان، أو ميثاق التمهيد، حيث يلاحظ القارئ تطابق المؤلف السارد، الشخصيّة، مع أنّه لم يكن موضوع أي إعلان رسميّ"([1])

وعلى الجانب المقابل يقف ميثاق آخر، وهو الميثاق الروائي الذي يلجأ إليه الكاتب للتعمية، أو المواربة في تدوين سيرته الذاتيّة، لما للسيرة من تبعات اجتماعيّة، ومواقف تتعلق بالشخصيات التي تُذكر في النص، وكشف لأسرار لم تكن ظاهرة للعلن، وكلها أمور لا تخص المؤلف فحسب، إنما تتعلق بأناس تربطهم بهذا المؤلف علاقات، ووشائج، وهذا ما منع الكثيرين من تدوين سيرهم الذاتيّة، أو اللجوء إلى الإعلان عن ذلك، فتقنّعوا وراء التقنيّة الروائيّة، وعرضوا تاريخ حياتهم دون الإعلان عن ذلك مباشرة. وفي تلك الحالة لا نستطيع أن نسمي "أي عمل فنّي ترجمة ذاتيّة إلاّ إذا كان مكتوباً بهذه النيّة ولهذا الغرض بالضبط، أي أن يقول لنا المؤلف هذه هي مذكراتي، أو هذه هي حياتي، ويكتبها بأسلوب السرد المباشر لحياته، أما إذا صبّ هذه الحياة في قالب روائيّ أو فنيّ أياً كان فإنّه في الحال يصبح عملاً فنيّاً لا ينبغي لنا بأيّة حال من الأحوال أن نسمّيه ترجمة ذاتيّة"([2]).

فمن الكتّاب من وضع على الغلاف مصطلح رواية، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الميثاق الروائي، الذي يتعارض مع ميثاق السيرة الذاتية، ففي "مقابل ميثاق السيرة الذاتيّة، يمكننا أن نطرح الميثاق الروائي، الذي سيكون له أيضاً مظهران؛ أولهما جليّ لعدم التطابق (إذ لا يحمل المؤلف والشخصيّة نفس الاسم)، والثاني تصريح بالتخييل، (العنوان الفرعيّ رواية على العموم) هو الذي يؤدّي اليوم هذه الوظيفة على الغلاف، مع ملاحظة أنّ رواية تعني في المصطلحات المعاصرة، ميثاقاً روائيّاً، في حين أنّ مصطلح محكي غير محدد، وينسجم مع ميثاق السيرة الذاتيّة"([3])، ومثال ذلك ثلاثيّة حنا مينا.